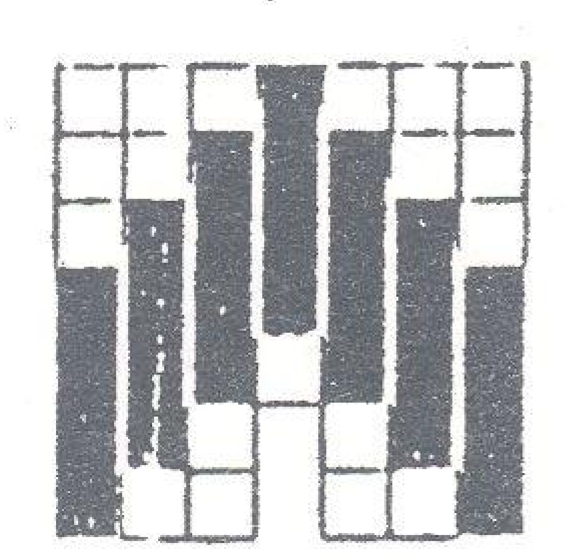


وزارة الثقافة
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
MINISTRY OF CULTURE
THE NATIONAL LIBRARY
& ARCHIVES OF EGYPT



الإدارة العامة

الوضعية التاريخية لوجود المخطوطات فى المغرب
وضعية مخطوطات الخزانة الحسنية

الدكتور/ أحمد شوقى بنبين

مدير الخزانة الملكية

الرباط ـ المغرب

ندوة العالمية للمخطوطات
القاهرة ٢٨/٥ ـ ٣٠/٥/١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على مولانا رسول الله

الوضعية التاريخية لوجود المخطوطات في المغرب
وضعية مخطوطات الخزانة الحسنية

يجمع الباحثون على أن الحضارة الإسلامية في جوهرها ومضمونها حضارة كتابة و تأليف ، و يشهد الجميع بالدور البارز الذي لعبه المخطوط العربي في نقل حضارة و ثقافة الإنسان العربي في مختلف البلاد العربية و الإسلامية ، و كان المغرب من أبرز هذه الدول التي تجمع لديه رصيد مهم من التراث المخطوط و ذلك لأن المغاربة كانوا مولعين بالبحث والتنقيب عن الكتب يرحلون من أجل الحصول عليها و يرسلون البعثات قصد اقتنائها واستنساخها و الاستفادة منها ، و كان نتيجة هذا الإقبال اللا محدود علي الكتاب و هذا الحرص على العثور على النسخ الأصلية أو الصحيحة المضمون أو المصحوبة بالإجازات و السماعات و غيرها هي أن المغرب يحتفظ اليوم برصيد من المخطوطات يمتاز بنوادره و نفائسه يكاد يميزه نسبيا عن الأرصدة المحفوظة في مختلف خزانات الكتب في العالم . و سنحاول في هذه العجالة أن نتتبع مسيرة المخطوط العربي في المغرب من خلال حديث موجز ومركز عن الخزانة الملكية التي تعتبر اليوم من أغنى خزانات الغرب الإسلامي من حيث محتواها و عدد عناوينها و قيمتها التاريخية و الفنية .

إن أي حديث عن المخطوط لن يتم إلا في إطار مؤسسة رعته وحفظته و صانته للعلماء و الباحثين ، و قد كانت أول مؤسسة في المغرب اعتنت بالكتاب المخطوط هي الخزانة الملكية التي أسسها لأول مرة الشرفاء الأدارسة منذ العصور الإسلامية الأولى ، كان ظهور الأدارسة على مسرح الأحداث في المغرب سببا في جلب العديد من العلماء سواء من المشرق أو افريقية أو الأندلس حبا في التقرب من سلالة الرسول عليه الصلاة و السلام و الانتفاع ببركاتها و نفحاتها ، و لم يذخر هؤلاء الشرفاء وسعا في اقتناء الكتب و استنساخها و مراسلة العلماء الأعلام و خلق كراسي علمية في المساجد و الجوامع ، و قد جاء في كتاب المسالك للبكري أن الخليفة أحمد بن قاسم الإدريسي دعا الشاعر و العالم الكبير بكر بن حماد التاهرتي للاستقرار بمدينة فاس و تدريس العلوم بجامع القرويين الحديث العهد ، و ما إخال هذه الحركة الثقافية إلا أنها تمخضت عن رصيد من المخطوطات دخل المغرب رفقة

هؤلاء العلماء الأفذاذ و استقر بمكتبات عامة و خاصة لم يفصح عنها ما بقي بين أيدينا من مصادر و وثائق ، و قد تمخضت هذه الحركة أيضا عن وضع مؤلفات لم نعرف عنها اليوم إلا العناوين ، وذلك بإيعاز و تشجيع من البلاط الإدريسي الذي بات ينافس كلا من البلاط العباسي و بلاط بني رستم بتاهرت (1) .

و قد بلغت هذه الحركة أوجها على عهد الخليفة يحيى الرابع الإدريسي الذي تم الاستقرار السياسي في أيامه و أحاط نفسه بمزيد من العلماء ، و ذلك لأنه كان عالما و محبا للعلم ، يتحلق حوله العلماء للحديث والمناقشة ، و يؤكد البكري في "المسالك " أنه كان بقصر هذا الخليفة عدد كبير من الوراقين ينسخون الكتب برسم خزانته التي يمكن اعتبارها أول خزانة خاصة لعبت دورا أساسيا في جلب و استنساخ و تجميع المخطوطات بالمغرب ، كما كانت نواة الخزانات الملكية و المثال التي احتذاه الملوك منذ العصر الإدريسي إلى اليوم ، و لم تعد المصادر لتحدثنا عن المكتبة الملكية إلا على عهد المرابطين الذي تم فيه تمازج كبير بين الحضارتين الأندلسية والمغربية وانتقل العديد من علماء الأندلس إلى المغرب كما جلب الكثير من الكتب وذلك في سبيل إشاعة الثقافة بين الناس و تلبية رغبات العلماء الباحثين والمؤلفين ، فإذا كان يوسف بن تاشفين المرابطي قد حمل إلى المغرب خلال رحلاته إلى الأندلس الكثير من المخطوطات العربية التي يبدو أنها جزء مما تبقى من خزانة الأمويين الشهيرة بقرطبة و مجموعات أخرى من خزانات ملوك الطوائف الذين كانوا يتنافسون في جلب العلماء و تجميع الكتب والخزانات ، فإن ابنه الخليفة علي بن يوسف هو الذي وضع أسس الخزانة الملكية المغربية بصفة عامة ، و لا تزال مكتباتنا إلى اليوم تضم ضمن محتوياتها كتبا تنسب إليه أو كتبت برسم خزانته الخاصة "كالموطأ " التي تحتفظ به خزانة القرويين والذي نسخه للخليفة في مراكش يحيى بن محمد بن عباد اللخمي عام 503هـ - حسب ما جاء في ظهر الجزء الحادي عشر من الكتاب المذكور .

---

(1) بنو رستم : خوارج عاصمتهم تاهرت بالجزائر .

و قد كانت كتب علم الفروع تمثل أكبر نسبة من محتويات الخزانة المغربية آنذاك بدليل ما يقوله المراكشي في "المعجب" ، و لم يكن يقرب من أمير المسلمين و يحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب و عمل بمقتضاها و نبذ ما سواها " (1) .

و إذا كان الخوض في الفلسفة و علم الكلام يعتبر بدعة في عهد المرابطين و الذي تكاد خزاناته تخلو من هذا النوع من الكتب ، فإن الخزانة الملكية في العصر الموحدي قد تجاوزت سمعتها حدود المغرب و ذلك لغناها وتوفرها على آلاف الكتب في جميع مجالات المعرفة و على الأخص منها كتب العلم و الفلسفة . إن هذه الخزانة - حسب المقري - قد بلغت محتوياتها أربعمائة ألف مخطوط ، نسبة المخطوطات العلمية و الفلسفية خمسون في المائة ، و قد تحقق هذا على عهد يوسف بن عبد المومن الموحدي الذي كان مولعا بالعلم و الفلسفة ، وقد شبه القدماء هذه الخزانة بخزانة الحكم المستنصر الأموي في قرطبة في القرن الرابع الهجري ، يقول المراكشي :

" و لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس و المغرب ويبحث عن العلماء و خاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله مما ملك المغرب " (2) .

قد بلغت الخزانة الملكية أعلى مكانة في تاريخها ابتداء من القرن الثامن الهجري حتى الوقت الحاضر ، و قد كان هذا التطور نتيجة عوامل كثيرة ساعدت على إيجاد حركة ثقافية كبرى مكنت الخزانات المغربية من ضم ما لم تستطع أن تضمه من كتب في العصور السابقة ، وكانت لهجرات علماء الأندلس إلى المغرب الذين أرغموا على مغادرة الفردوس المفقود ، الأثر الكبير في تطوير الحركة الثقافية في المغرب و إثراء خزاناته بالمخطوطات التي أصبحت تتوافر إما عن طريق التأليف أو الانتساخ أو التبادل أو الترجمة أو الاقتناء كما جلب الاستقرار السياسي الذي يكاد ينفرد به المغرب

---

(1) "المعجب" : 254 .

(2) " " : 349 .

في تلك العصور خصوصا في القرن السادس عشر العديد من علماء المدينة ، ومكة و الشام و تركيا و إفريقية و الصحراء ، فوضعوا الكتب و نسخوها بتشجيع من الخلفاء الذين كانوا لا يألون جهدا في البحث عن المخطوطات في جميع الأقطار . و أكتفي هنا بذكر الخليفة السعدي أحمد المنصور الذهبي والعالم السوداني أحمد بابا التمبكتي ، فلكليهما الفضل الكبير في إثراء الخزانة المغربية ، يقول الإفراني في حق المنصور الذهبي "

" و مما تميز به تيها و عجبا خزانته على سائر الخزائن الملوكية ، تآليف الفاضل العلامة الرحال أبي جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي التي منها " شرح لامية العجم " أملى بعضه أو كله في المشرق وهذبه في المغرب و خدم به المنصور و له شرح على درر السمط لابن الأبار ، إلى أن قال : " و كانت للمنصور عناية تامة باقتناء الكتب و النفائس في جمعها من كل جهة فجمع من غرائب الدفاتر ما لم يكن لمن قبله و لا يتهيأ لمن بعده مثله وجل كتبه طالعه و تفهمه و وقف عليه بخطه و نبه على الغامض و شرح الطريق " (1)

و مما يدل على اهتمام المنصور بالكتب و ولعه بها و حرصة على الحصول عليها تلكم الرسالة التي بعث بها إلى الأديب البارع أبي زيد عبد الرحمن الحميري :

" ... فصرفتهم في جانب الوثوق بكم في أهم أغراضنا و في الكتب العلمية التي نوثر اجتلابها و ادخارها على كل آكيد ، و نحل أمرها من التفاتنا و اعتنائنا بأقرب من حبل الوريد . هذا و أنه ينتهي إليكم إن شاء الله على أيدي خدمتنا دفتر قيدنا فيه بعض ما تذكرناه في الوقت من الكتب فبحسب ولوعنا بهذا المقصد الكريم نعهد إليكم لأجل ما نعلم من حرصكم على تحصيل ما يرضينا أن تصرفوا وجه اعتنائكم لجمعها لنا ، فما تيسر ابتياعه عجل على أيديكم تحصيله إن شاء الله و ما لم يتفق سوى انتساخه فتوكلوا فيه على الله مع التأنق في روائع الخطوط و العمل العجيب الذي ترون

---

(1) " نزهة الحادي : الإفراني ، ص 122 .

مناسبته لعلائنا ثم ما عسى أن تحدوه مما لم يدرج في الزمام و كان لائقا بعلائنا فأنتم المشكورون في جمعه لجنابنا الحسنى عملا على شديد حرصنا في انتقاء الكتب العلمية و الاستكثار منها ، و لسنا نعادل شيئا من الأعمال بالسعي في تحصيل غرضنا في الكتب العلمية و أنتم لا يعوزكم ما تريدون جمعه لنا إن شاء الله و يصلكم مع هذا المدرج إعانة لبعض ضرورياتكم الوقتية مائة مثقال نضارية " .

إن هذه الخزانة التي بذل المنصور الذهبي جهدا كبيرا في إغنائها بنفائس المخطوطات قد آلت إلى الإسكوريال على عهد ولي عهده زيدان حينما تم اختطافها على يد القراصنة الأسبان في بداية القرن السابع عشر (1612 م) .

و يجدر بنا أن نذكر أنه ابتداء من القرن الثامن الهجري ، واعتبارا للعوامل السالفة الذكر ، أن الخزانة المغربية قد بلغت أوج تطورها وازدهارها في تاريخ المغرب الثقافي ، فإلى جانب الخزانة الملكية التي نتتبع من خلال تاريخها مسيرة المخطوط في المغرب ، قد ظهرت - و لأول مرة - خزانات أخرى لعبت دورا كبيرا في تطور الثقافة و في الحصول على الكثير من المخطوطات التي لا تزال تفتخر بها مكتباتنا المعاصرة ، إنها خزانات المساجد الجامعة كالقرويين بفاس ، و ابن يوسف بمراكش ، و خزانات المدارس العتيقة ، و خزانات الزوايا التي انتشرت في مختلف جهات المغرب و لا يزال بعضها إلى اليوم يضم مجموعات نادرة كتلكم التي تحتفظ بها زاوية تامكروت بجبال الأطلس و الزاوية الحمزاوية بجبل الحديد .

و لم يكن الملوك العلويون بأقل اهتماما من الشرفاء السعديين بالمخطوطات و إثراء خزاناتهم الخاصة بالكتب النادرة اقتناء و إهداء و استنساخا ، و مما يبرز هذا الاهتمام ، وهذا الولع هو ما ينسب للسلطان المولى الرشيد الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة من بناء ديوان الوراقة ألحقه بالخزانة السلطانية و ذلك لاستنساخ المخطوطات قصد إغناء مجموعته الخاصة ، و كذلك كان الأمراء بحيث كانوا يتنافسون و يتباهون بتجميع المخطوطات و الحصول على النفيس و النادر منها ، الشئ الذي جعل المغرب اليوم من أكبر الدول العربية و الإسلامية حفاظا على نوادر المخطوطات .

و مما تميز به الملوك العلويون هو اهتمامهم بفن أو علم معين كان حافزا لهم على جلب الكتب الخاصة بهذا العلم من جميع الأقطار و بأي ثمن شراء أو نسخا و استنساخا.

يحدثنا الزياني في الروضة السليمانية أن أغلب محتويات خزانة السلطان المولى سليمان (1822 م) كان كتب تاريخ لأن هذا الأخير كان مولعا بقراءة التاريخ (1) .

و تحدثنا المصادر كذلك أن خزانة السلطان محمد بن عبد الرحمن كانت أغلب كتبها كتب علوم لأن هذا الملك كان شغوفا بهذا النوع من الكتب ، و كان ابنه السلطان الحسن الأول أكثر شغفا من أبيه بكتب العلوم وكتب علم الكيمياء (**Alchimie**) على وجه الخصوص ، يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني " أن هذا السلطان كان يجلب مخطوطات الكيمياء من خزائن جامع القرويين و اسبانيا و اصطنبول بتركيا و أخيرا من الخزانة الخديوية بالقاهرة " (2) .

يبدو من خلال ما تقدم أن تجميع التراث المخطوط قديم في المغرب ، و أن المغاربة بدأوا يهتمون بهذا التراث منذ العصر الإدريسي يجمعونه بكل الوسائل المتاحة . و في القرن التاسع عشر حينما أصبح المغرب البلد العربي و الإسلامي الوحيد تقريبا الذي لم يخضع بعد للاستعمار الغربي ظل الباحثون ، غربيين و مشارقة ، يعتقدون أن المغرب لما كان يعرف عنه من غنى محتويات خزاناته و اهتمام علمائه و ملوكه و أهله عموما بالمخطوطات هو البلد الذي يمكن أن يجدوا فيه ضالتهم و أن كل مخطوط تعذر العثور عليه في الخزانات الشرقية و الغربية قد يكون مصونا في المغرب .

---

(1) الزياني . " الروضة السلميانية " : مخطوط الخزانة العامة د/1245 .

(2) الكتاني : " المكتبات الإسلامية " . مخطوط الخزانة العامة ك/3021 .

هذا علي باي العباسي يحكي في رحلاته إلى إفريقا و آسيا أنه رحل إلى المغرب ليبحث في خزانة جامع القرويين عن ترجمة عشريات المؤرخ اللاتيني تيطس ليفيوس (17 م) (Titelive) التي يظن معظم الباحثين أنه محفوظ في المغرب . و هذا المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي قضى سنين عديدة في البحث عن عشريات المؤرخ اللاتيني و لم يعثر عليها . أكد اقتناعة بنقل الكتاب جزئيا أو كليا إلى العربية و أنه محفوظ في مكان ما في المغرب ، و دليله على ذلك هو أن ابن خلدون قد استفاد منه واعتمده مصدرا أساسيا في وصفه لمعركة " كان " (216 م) Cannes التي واجه فيها القرطاجنيون بزعامة هانبال (Hannibal) دولة الرومان برئاسة فارون Varron و هزموهم شر هزيمة ، و أخيرا هذا المستشرق الفرنسي هنري دوكستري (H. De Castrie) ينشر في كتابه المصادر الدفينة لتاريخ المغرب (S.I.H.M.) وثائق تثبت أن المغرب يحتفظ بمخطوطات لاتينية و يونانية و أنها ستكتشف يوما ما في خزانة من خزاناته العديدة ، و الوثائق المشار إليها في كتاب هذا العالم يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر للميلاد .

و على الرغم مما ألم بالخزانات المغربية من الغير و الآفات وما انتابها أحيانا من النهب ، أودى بالكثير من المخطوطات و شتت شمل أكثر الأسفار انتقل عدد منها ليس باليسير إلى المكتبات الغربية أو دخل في حوزة بعض الخاصة ، فإن الخزانات المغربية لا تزال تحتفظ بالعديد من النوادر والفرائد .

و قد تعتبر الخزانة الملكية في المغرب بكل فروعها من أغنى خزانات الغرب الإسلامي ليس فقط باعتبار محتوياتها التي تناهز عشرين ألف مخطوط ، و لكن باعتبار الفرائد التي تحتفظ بها مثل الجزء الخامس من "المقتبس" لابن حيان الأندلسي (نسخة فريدة في العالم) و مقدمة ابن خلدون التي بعث بها المؤلف نفسه من مصر إلى ملوك المغرب .

و بفضل الجهود التي بذلها أسلافنا من العلماء و الشيوخ والملوك و الأمراء و الوزراء في تجميع المخطوطات تتوافر المكتبات المغربية على مؤلفات الأندلسيين و الأفارقة و السودان المغربي ، و الليبيين و المصريين ، و الشاميين و العراقيين و الهنود و الإيرانيين و مسلمي الاتحاد السوفياتي و اليهود و حتى بعض مخطوطات اليونانيين و اللاتنيين التي تمت الإشارة إليها فيما سبق .

و لا أريد أن أختم هذه الكلمة دون الإشارة إلى علم أصبح اليوم موضع اهتمام علماء الغرب يؤسسون له المعاهد العلمية ، و يكونون المختصين ، و يخصصون للبحث فيه الاعتمادات اللازمة ، فتقدموا فيه وقطعوا أشواطا في تيسير سبل البحث فيه ذلكم العلم هو ما أطلقوا عليه الكوديكولوجيا أو علم المخطوطات . فعلى الرغم من اهتمام العرب عموما بالمخطوط العربي ، فإن جوانب عديدة تهم هذا المخطوط و تدخل في إطار الكوديكولوجيا لم تدرس حتى الآن ، و على الرغم من وجود قسم خاص بدراسة علم المخطوط العربي بمركز البحث و تاريخ النصوص التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في باريز ، فإن الزملاء العاملين به يعترفون بأنهم مقصرون في الاهتمام بهذا العلم ، كما يؤكدون تقصير علماء العرب كذلك تجاه الكوديكولوجيا العربية على الرغم من تعدد الأكاديميات و مراكز البحث الخاصة بالمخطوطات ، أملي أن تتضافر الجهود و تتوحد الكلمة و ذلك في سبيل النهوض بهذا التراث ليشتغل به في مدارج الجامعات و المعاهد بعدما ظل زمنا طويلا رهين المحبسين نظائر الزجاج و رفوف المكتبات .